مجلة اللغة العربية والعلوم الإسلامية المجلد (2) العدد(8)- ديسمبر 2023م
الترقيم الدولي للنسخة المطبوعة: x 145-2812 الترقيم الدولي للنسخة الإلكترونية: 2812- 5428
الموقع الإلكتروني: https://jlais.jourals.ekb.eng

ثنائية البداوة والحضارة في الشعر العباسي
(علي بن الجهم أنموذجا)

أ.د. رزق المتولي رزق أحمد
أستاذ الأدب والنقد بقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية
كلية التربية – جامعة المنصورة
rizkelmetwally@mans.edu.eg

Journal of Arabic Language and Islamic Science Vol (2) Iss (8)- Des2023
Printed ISSN:2812-541x On Line ISSN:2812-5428
Website: https://jlais.journals.ekb.eg/

ثنائية البداوة والحضارة في الشعر العباسي
(علي بن الجهم أنموذجا)

أ.د. رزق المتولي رزق أحمد
أستاذ الأدب والنقد بقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية
كلية التربية – جامعة المنصورة

قبل الخوض في تناول الأوصاف البدوية في شعره ابن الجهم ، وجدت لزاما عليّ أن أتطرق إلى تعريف البادية لغة واصطلاحاً .

وردت الكلمة في المعاجم اللغوية بمعان مختلفة، إلا أنها تجتمع في النهاية، ومن ذلك ما جاء في "لسان العرب" لابن منظور " بدا الشيء يبدو بدواً ، وبداء: ظهر، وأبديته أنا : أظهرته . وبداوة الأمر: أول ما يبدو منه ،وبادئ الرأي أي ظاهره. وكل شئ أظهرته ، فقد بديته ، " [1].

ويتفق مع ما سبق ما جاء في " القاموس المحيط " للفيروز أبادى ، فيقول في مادة " بدا " " بدا بدواً وبداءة : ظهر وأبديته وبداوة الشيء أوله ما يبدو منه ، وبادئ الرأي ظاهره ، وبدا له في الأمر بدواً وبداةً نشأ له فيه رأى وهو ذو بداوات وفعله بادي بدء وبادي بَدٍ وبادي بداً أصلها الهمز ، وذكرت بلغاتها "[2].

وقد وردت كلمة " البدو " بمعنى الخروج إلى البادية وسكناها، ففي اللسان : " بدا القوم بداءً خرجوا إلى البادية . وقال الليث: البادية اسم للأرض التي لا حضر فيها، وإذا خرج الناس من الحضر إلى المراعي في الصحارى قبل : قد بدوا والاسم : البدو "[3].

---

[1] – ابن منظور : لسان العرب ، طبعة دار المعارف بمصر ، مادة " بدا" .

[2] – الفيروز أبادي : القاموس المحيط ، نشر مكتبة الحلبي بمصر ، مادة " بدا " .

[3] – ابن منظور : لسان العرب ، مادة " بدا "

وجاء في "أساس البلاغة" : " لقد بدوت يا فلان : أي نزلت البادية وصرت بدوياً ،ومالك والبداوة ؟ وتبدى الحضري ، ويقال : أين الناس ؟ فنقول قد بدوا ، أي خرجوا إلى البدو "[1] . ويرد هذا المعنى عند صاحب "تاج اللغة"، فيقول : " .... وبدا القوم بدواً ، أي خرجوا إلى البادية ، مثال قتل قتلاً ، وتبدى الرجل أقام بالبادية ، وتبادي تشبه بأهل البادية ، والبدي اسم وادٍ لبنى عامر "[2] .

أما البداوة كمصطلح ، فهي ضد الحضارة ، وهما سمتان للحياة الاجتماعية في كل عصر ، فالانتقال يتم تدريجياً من الصورة الأولى بخشونتها وشظف عيشها إلى الثانية بما لها من نعومة وترفه ، ويقول ابن خلدون : " إن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال ، لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس ... "([3]).

وانتهى ابن خلدون إلى أن البداوة هي الصورة الأولى لنشأة المجتمعات ، وفى موضع آخر نراه يقسم العمران إلى شقين ، ويقول : " ومن هذا العمران ما يكون بدوياً ن وهو الذي يكون في الضواحي وفى الجبال وفى الحلل المنتجعة في القفار وأطراف الرمال ، ومنه ما يكون حضرياً ، وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن ...... الخ "([4]).

وهى في مفهومها العام النمط السائد والأسلوب الدائم للحياة الإنسانية منذ القدم ، فلقد بدأ الإنسان حياته بدوياً ، تقوم حياته على عدم الاستقرار والتنقل ، وهى مع هذا ليست مطلق التنقل غير المحدود ، ولكنها تنقل يستهدف التحرك حول مراكز مؤقتة

---

[1] – الزمخشري : أساس البلاغة ، طبعة دار الكتب المصرية ، الجزء الأول ، ص 37

[2] – الجوهري : تاج اللغة وصحاح العربية ، مطبعة بولاق ، القاهرة ، الجزء الثاني ص 446 ، مادة " بدا "

[3] – ابن خلدون ، تحقيق على عبد الواحد وافى ، طبعة لجنة البيان العربي ، 1965 م ، الجزء الثاني ، ص 656 .

[4] – ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، الجزء الأول ، ص 428 ، تحقيق د. على عبد الواحد وافى ، طبعة دار الشعب ، القاهرة .

يتوقف مدى الاستقرار فيه على كمية الموارد المتاحة فيها ، وعلـى مـدى تـوافر الوسائل ، وعلى الأمن الاجتماعي والطبيعي الذي يمكن أن يتوفر فيها ([1]).

وهذا فيما يتعلق بالبداوة من حيث اللغة والمصطلح ، أما عن مظاهر البداوة فى وصف ابن الجهم :-

(1)- **وصف الأطلال** .

تعد الأطلال أول ما يتبادر على ذهن الشاعر العربي ، وهـى أول مـا تقابـل الباحث في القصيدة العربية ، يقول ابن قتيبة " وسمعت بعض أهل الأدب يـذكر أن مقصد القصيدة إنما يبدأ بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا ،وخاطـب الربـع ، واستوقف الرفيق ؛ ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها ، وإذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم عن مـاء إلـى مـاء، وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان .. الخ "[(2)].

ولهذا الابتداء في القصيدة العربية صورة واحدة متعددة القوالب والوجوه ،فيقول ابن خلدون :فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول كقوله :" يـا دار ميـة بالعلياء ، فالسند يكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال ،كقوله :قفا نسأل الـدار التي خف أهلها ،أو باستبكاء الصحب علي الطلل ،كقوله :قفا نبك من ذكري حبيـب ومنزل ،أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله :حـي الـديار بجانب الغزل ،أو بالدعاء لها بالسقيا أو سؤال السقيا لها من البرق "([3])0

---

[1] - <u>انظر</u> :

(1)- صلاح الفوال علم الاجتماع البدوي ، مكتبة القاهرة الحديثة 1967 م ، ص 73 ، 78 ، 80 ، 154 ـ 150 .

(2) -الألوسى :بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب ، الجزء الثالث ، ص 425 ، شرحه محمـد بهجـة تأثري ، منشورات دار الشرق العربي ، بيروت 1314 هـ .

[2] - ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، طبعة دار التراث العربي ، مصر ، الطبعـة الثالثة 1977 م ، الجزء الأول ، ص 74 ، 75 . <u>**وارجع إلي**</u> :العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ،دار المعارف مصر ، ص184،183

[3] -نسيب غازي :نقد الشعر ، طبعة بيروت ، د0ت ، ص134

ويجب أن أشير أن القدماء قد وقفوا "وقفات متأنية أمـــام آثـــار محبوبـــاتهم ، ووصفوا أحجارها الصماء التي طال عليها الأمد ، ووقفـــوا عنـــد أثافيهـــا الســـفح المحترقة ، ودمنها المتبقية ، ونؤيها المتهدم وحيواناتها التي تجوس قيعانها ، وذكروا أندارس هذه الأطلال وتعاقب الرياح والأمطار وصوروها في أشكال مختلفة تعكـــس حالاتهم النفسية الصعبة التي يعانون منها أثناء تذكرهم أيام اللهو والشباب ، وإذا هي طامسة لا تتبينها إلا بعد لأي وجهد " ([1]).

ويقول شوقي ضيف معلقاً علي ذلك بقوله : " وقد نعجـــب لاســـتبقاء هـــؤلاء الشعراء المتحضرين لعناصر الأطلال ورحلة الصحراء البدوية ،غير أنهم اتخـــذوها رمزاً ،أما الأطلال فلحبهم الداثر ،وأما رحلة الصحراء فلرحلة الإنسان فـــي الحيـــاة ،وقد استغلوا ما كان يصحب الأطلال من حنين لذكريات حبهم ومعاهده "([2])0

ومن صور وصف الطلل في شعر على ابن الجهم ، قوله :([3])

مَتى عَطِلَتْ رُباكِ منَ الخِيامِ	سُـــقِيتِ مَعاهِـــداً صَـــوْبَ الغَمـــــــــــــامِ
لأسْرَعَ ما أدالَتْـكِ اللَّيـالي	وأخْلَـتْ عَنْـــكِ عَائـــِرةَ السَّـــــــــــوام
وقَفْتُ بِها عَلَى حَلَلٍ بَـوالٍ	تعَفِّيـــــــها السَّوامِـــــــى بِالقَتـــــــــــامِ
فَقُلْتُ لفتيةٍ منْ آلِ بـــــدْرٍ	كِـــــرامٍ والهَـــــوَى دَاءُ الكِـــــــــــرَامِ
قِفُوا حيُّوا الدِّيَارَ فَإنَّ حَـقّاً	عَلَيْـــــــنَا أنْ نُحَـــــــيِّ بالسـَّـــــــــلامِ

[1] – نورى القيسي : الطبيعة في الشعر الجاهلي ، رسالة دكتوراه بآداب القاهرة ، ص 250 ، ص 269 .

[2] – شوقي ضيف :العصر العباسي الأول ، ص163

[3] – الديوان : ص 203 ــ 204

فالشاعر يستهل قصيدته في مدح الخليفة المعتصم بمقدمة طللية على عادة القدماء ، واصفاً فيها الطلل ، واقفاً على الديار ، واصفاً عدو الفرس وذهابه هنا وهناك ، ولا شك أن هذه الأوصاف بدوية ، ثم يصف الأطلال وما حدث لها ، حيث محتها الرياح ، طالباً من فتية من آل بدر ــ وهو جد الشاعر واسمه بدر بن الجهم بن مسعود ــ أن يقفوا على هذه الأطلال ويحيوها بالسلام ، حيث يرى أنه من العار أن تطأ المطايا هذه الديار والأطلال ، دونما أن تذرف العين من دمعها المهراق .

ثم يستمر شاعرنا في وصفه للأطلال ، قائلاً :([1])

فَظَلْنَا نَنَشُدُ العَرَصَاتِ عَهْداً تَصرَّمَ والأُمورُ على انْصِرَامِ

ونَستَافُ الثَّرى منْ بَطْنِ فَلْجٍ ونستلمُ الحِمَى أيَّ اسْتِلاَمِ

إلى أنْ غَاضَتِ العَبَراتُ إلاَّ بَقَايا بينَ أجْفَانٍ دوَامِ

ورُحْنَا تلزَمُ الأيْدِي قُلُوباً دَوِينَ مِنْ الصَّبَابَةِ وَالغَرَامِ

ومازال شاعرنا يصف الطلل ، واصفاً ما حدث في هذه الرحلة ، قائلاً أنه ينشد ويتحدث إلى هذه العرصات والأطلال البالية ، مختتماً بيته هذا بحكمة غاية في الروعة وهى أن كل شئ إلى انصرام وفناء ، وهذه هي طبيعة الحياة ، ومن شدة شوقه وحبه لهذه الأطلال التي عاصرت معه أجمل أيام حياته ، يذكر أنه ظل يشم ترابها ويقبله ، إلى أن ذهبت العبرات والدموع ،إلى أن وصل الأمر به إلى المرض والسقم0

هذه اللوحة الفنية للأطلال قد اعتمد شاعرنا في رسمها علي مجموعة من الصور مثل " صورة السوافى[2] التي تمحو التراب " ، " صورة العرصات التي تنشد " ، " صورة الثرى الذي يشم " ، " صورة الصبابة والغرام اللذان يمرضا " . ولا

---

[1] - الديوان : ص 204 ــ 205

شك في أن شاعرنا قد لجأ إلى الطبيعة المحيطة به؛ لرسم وتشكيل وتلوين صـــورته الفنية ، فبدت هذه اللوحة طبيعية ناطقة بالحياة والحركة .

(2)- **وصف الحيوان** .

ومن أهم صور الحيوان التي وردت في شعر ابن الجهـــم ، الناقـــة والكـــلاب والخيل والبقر الوحشي ووصف الحية . **أما فيما يتعلق بالناقة** ، فهي تعد لازمة من لوازم القصيدة العربية ، سواء أكانت قصيدة مديح ، أو فخر أو هجـــاء أو غـــزل ، وهذه الظاهرة ليست غريبة ، فالناقة تعد من أهم وسائل الرحلة عبر الصحراء ، وقد ارتبط اسمها بالصحراء لمقاومتها للظروف الصحراوية القاســـية ، وعـــن طريقهـــا اهتدى العرب إلى النجوم ، وعرفوا الطرق ، وتعلم البدوي منها الصبر والغيرة ([1])0

ولا شك أن الناقة "تعد مصدر الخير والرزق ورفيقة السفر الصبور علي الأين ،تقطع الفيافي وتجتاب الفلوات دون كلل أو ملل ،وقد وقف الشعراء يتـــأملون فيهـــا ،فوصفوا جسمها الضخم القوية ،وشبهوه بالعلاة وهي سندان الحداد والقصر قصـــر الهاجري ،والقلعة الضخمة ،والصخرة الصلبة ،ودققوا في أعضائها فلم يغادروا عرقاً ولا عصباً إلا وصفوه أدق وصف ،ونظروا في أحوالها سرعتها ونشاطها وعاطفتها وحنينها "([2])0

ومما هو جدير بالذكر أن "أوصاف الناقة لدي الشعراء تكاد تكون متشابهة ،فهي قوية متينة صلبة قبل السفر ،وهي نحيلة مهزولة بعد أن قطعـــت الفيـــافي وجابـــت الفلوات في حر الهواجر وقر الشتاء ،يعتنون بوصف شكلها ولونها وصفاتها "([3])

ولقد بلغ اهتمام العرب بالناقة إلي حد التقديس ،والي ما يصنعه الأعراب مـــع البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي ،فكانت "الناقة إذا أنتجت خمسة أبطـــن آخرهـــا

---

[1] – النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، الجزء العاشر ، ص 111 ، طبعة الهيئة المصـــرية العامـــة للكتاب 1985 م

[2] –د0يحيي الجبوري : الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ، مؤسسة الرسالة ، بيـــروت ،الطبعـــة الثالثـــة 1982م،ص366

[3] – المرجع نفسه :ص366

ذكر بحروا أذنها وشقوها وامتنعوا عن نحرها وركوبها وأباحوا لها الماء والمرعي ،وهي البحيرة 0واذا ولدت الناقة عشر إناث تهمل ولا تركب ،ولا يجز وبرها ،ولا يشرب لبنها ،وهي السائبة والحامي الفحل إذا أنتج عشر إناث متتابعات ليس بينهم ذكر حمي ظهره ،فلم يركب ولم يجز وبره ،وخلي في إبله يضرب فيها ،فهذه التقاليد تدل علي أنهم كانوا يرتفعون بهذا الحيوان في أحوال خاصة إلي ضرب من التقديس 0([1])"

ولأجل هذا فقد أعطاها العرب من الاهتمام والعناية أكثر مما أعطوا غيرها من الحيوانات ، فكانت بحق في أغلب الأحيان رفيقة دروبهم ، في السلم والحرب والتجارة والنزهة ، ومما قاله ابن الجهم في وصف الناقة ،قوله:([2])

إليكَ خليفةُ اللهِ استقلَّتْ	**قلائصٌ مثلَ مُجْفِلَةِ النَّعامِ**
تَراها كَالسَّراةِ مُعَمَّماتٍ	**على اللَّباتِ منْ جَعْدِ اللُّغامِ**
تَهاوى بينَ هَدَّارٍ نَجِي	**وقُورِ الرَّحْلِ طَيَّاشِ الزِّمَام**
وبينَ شِمِلَّةٍ تَطغى إذا ما	**تَهافَتَتِ المطِىُّ منَ السَّئامِ**
جَزَعْنَ قَنَاطِرَ القَاطُولِ لَيْلاً	**وأعْراضَ المَطيرَةِ للمقُامِ**

فنرى ابن الجهم ينقلنا إلى جو البادية ، واصفاً لنا ناقته التي نقلته إلى الخليفة المعتصم ، ذاكراً ومشيداً ببأسها وقوتها وسرعة عدوها وقوة احتمالها ، ثم يصف ما أصابها من هزال وضعف بسبب كثرة السير والجهد الذي قامت به ، ومما لا شك فيه أن شاعرنا استعار ألفاظ البادية كالمطى ، القلائص ، على الرغم من حياته في مجتمع متحضر .

ولقد كان للعربي في الناقة آيات كثيرة ، يستخرج منها ما يريد ، يقول د. محمد محمد حسين : " كانت صحبة الجاهلي للناقة طويلة ، وكانت حياته قائمة عليها ،

---

[1] – د/ سيد نوفل : شعر الطبيعة في الأدب العربي ، دار المعارف ، مصر 1978م،ص31

[2] – الديوان: ص 206 ، 207

ومن أصوافها وأوبارها وجلودها بيته ، ولباسه ، وفراشه ، وغطاؤه ، وأثاثه ، ومن لبنها شرابه ، ومن لحمها وشحمها طعامه ، وعليها رحلته " .([1])

والملاحظ أن وصف الناقة في العصر العباسي كان امتداداً لأسلافهم من الجاهليين ، وقد اتبع على بن الجهم أسلافه الجاهليين في وصف ناقته ، فوصف هيئتها ، فجاءت قوية البنيان، وسريعة نشيطة، ففي موضع آخر يصف شاعرنا الناقة قائلاً :([2])

هـذا العَقِيقُ فَعَدِّ أيْـدى العِيسِ عنْ غُلَوائِـها
وامنـعْ نواجِيهَـا النَّجـاءَ فَـلاتَ حينَ نَجائِـها
وإذا مررتَ ببئـرِ عُـروَةَ فاسْقِنِـي مِـنْ مَائِـها

فهذا وصف آخر للناقة في مقدمة قصيدة مدحية ، مدح فيها المتوكل ، فيصف الناقة مشيداً بشبابها وقوتها وسرعتها ، ويرى أنها تنجو بمن ركبها ، وتفوز بالسبق والإسراع ، ومن خلال هذا العرض أرى أن شاعرنا حذا حذو القدماء السابقين عليه في وصف الناقة ، ولم يفرغ قصائد بعينها لوصف الناقة ، بل جاء وصفها إما في مقدمة قصيدة المديح ، أو في ثنايا قصائده .

كذلك من حيوانات البادية التي وصفها على ابن الجهم في شعره " **الكلاب** " ، وكانت عند العرب معززة مكرمة ، وكانت لهم أساليب خاصة في تربيتها ومعالجتها وتغذيتها وتدريبها ([3]). وذلك لأهميتها في حماية مواشيهم وخيامهم ودورهم ومزارعهم ، فقد فطنوا إلى ذكائها وعرفوا سرعة تيقظها ، فقربوها منهم تنبههم على

---

[1] – د. محمد محمد حسين : أساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة ، منشأة المعارف بالإسكندرية 1960 م ، ص 51 .

[2] – الديوان : ص 61

[3] – الجاحظ : الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت الجزء الثاني ، ص 48 ، 49 .

الأعداء ولتحتفي بالضيوف ([1]). وقد عرض الجاحظ لأسمائها المعروفة وأصـــنافها وما يستخدم للصيد والهراس ([2]).

ويصف ابن الجهم الكلب قائلاً :([3])

أُوصِيكَ خَيْراً بهِ فـإنَّ لـــــــــهُ   سجِـيَّةً لا أزالُ أحْـمَـدُهـــا

يَدُلُّ ضَيْفي علىَّ في غَسَـقِ اللَّيـــلِ إذا النَّـــارُ نـــامَ مُـوقِـدُها

فشاعرنا يوصى صديقه بحسن معاملة الكلب ، مشيداً بصفاته الحسنة وســجاياه الجميلة التي لا زال يحمدها ، فهو يدل ضيفه عليه ، في حالة نوم النار ، فهو يقــوم بدور المرشد للضيف ، وقد عمد الشاعر إلى الصورة الاستعارية في " سجية لا أزال أحمدها " فهو يصور السجية وكأنها إنسان يشكر ويحمد " النار نام موقدها " وقد ورد هذا المعنى أيضاً عند " ابن هرمة " حيث صور فرحة الكلب عندما رأى الضــيف ، فيقول :([4])

وفرحةٌ منْ كِـلابِ الحــيِّ يتبعُهــا   شحمٌ يزفُ بهِ الدَّاعي وترعيبُ

ولا يفوتني أن أشير إلى بيت ابن الجهم الذي قاله مادحاً المتوكل ، عندما وفد عليه ، فمدحه بوفاء الكلب ، وقوة التيس وقت الشدة ، حيث يقول :([5])

أنتَ كَالكلــبِ فِــي حِفاظِـكَ للــوُدِّ   وكَالتَّيسِ في قِــراعِ الخُطُوبِ

وكذلك من حيوانات البادية التي وصفها ابن الجهم ، "**<u>الخيل</u>**" فهي تعد وســيلة النقل الثانية بعد الإبل في البادية ، فقد اهتموا بها ، واعتنوا بتربيتها ، وحافظوا على

---

[1] – انظر : أنور عليان محمد : شعر الطبيعة في العصر العباسي الأول ، ما جستير بآداب القاهرة 1977 م ، ص 24 .

[2] – انظر : الجاحظ : الحيوان ، الجزء الأول ص 17 ، والجزء الثاني ص 311

[3] – الديوان : ص 118

[4] – ديوان ابن هرمة : تحقيق محمد جبّار المعيبد ، نشر مكتبة الأندلس ، بغداد 1969 م ، ص 64 .

[5] – الديوان : ص 78

أنسابها وألفوا فيها الكتب ، وقد كان للعرب في الخيل فوائد عدة ، أهمها ركوبها إلى ممدوحيهم ، وفى المعارك والطرائد ، ويجرونها في حلبة السباق .([1])0

ويصف ابن الجهم الخيل قائلاً : ([2])

فوقَ طِرْفٍ كـالطَّرفِ فـي سُــــرْعَةِ	الشَّدِّ وكالقلـبِ قَلْبُهُ فـــي الذَّكاءِ
مــا تــراهُ العيــونُ إلا خَيَـــالاً	وهــو مِثْــلُ الخَيــالِ فــي الانْطِـــواءِ

فشاعرنا يصف الخيل وصفاً غاية في البراعة ، فهو كالعين في سرعة الشـد ، فسرعته كلمح البصر ، وذكاؤه كذكاء القلب ، وهذا الجواد لسرعته وقوته ، لا تكاد تراه العيون إلا خيالاً ، بل هو الخيال ذاته في الانطواء ، وتزخر هذه الأبيات بالعديد من الصور ، فنجد الصورة التشبيهية في تشبيه سرعة الخيل بسرعة لمح العين لأي شئ " فوق طرف كالطرف في سرعة الشد " ، وكذلك الصـورة التشـبيهية فـي " وكالقلب قلبه في الذكاء " ، والصورة الكنائية في " ما تراه العيون إلا خيالاً " وكذلك الصورة التشبيهية التي تبين سرعة الخيل " وهو مثل الخيال في الانطواء ".

تعد "**<u>الحيَّات</u>**" من حيوانات البادية التي تطرق ابن الجهم لوصفها ، فقد عـرف العرب أنواعها ، الأفاعي ، الأحناش ، الأوساود ، الأراقم ، والتنانين ([3]). كما كان كثير من العرب يتخذون منها طعاماً ([4]) . وقد أشتهر " خلف الأحمر " بأراجيزه في

---

[1] – **<u>راجع :</u>**

– ابن الكلبي : " أنساب الخيل " ، تحقيق أحمد زكى باشا ، دار الكتب المصرية ، 1965 م .

– أبى عبيدة : " الخيل " ، طبعة حيدر أباد ، بدون تاريخ .

– البخش : رشحات المداد فيما يتعلق بالصافات الجياد ، طبعة حلب ، بدون تاريخ .

[2] – الديوان : ص 58

[3] – **<u>انظر</u>** : الجاحظ : الحيوان ، الجزء الرابع ، ص 243 ، 247

[4] – الجاحظ : الحيوان : الجزء الرابع ، ص 44 .

الحيات ، وقال عنه ابن قتيبة " كان يكثر قول الشعر في وصف الحيات ، وأراجيزه في ذلك كثيرة " ([1]).

ومما قاله ابن الجهم في وصف الحية ، قوله : ([2])

وَإذا بِدَاهِيَةٍ كَأنَّ حَفِيفَهـــــــــــا   بَينَ الثُّمـــامِ حَفِيـــفُ لَيْــثٍ خَـــــــــــــادرِ

صَمَّاءَ لو نفختْ ثبيراً نَفْخَـــــــــةً   لانْســـاحَ أو لَـــهَوى هـــوىَّ الطَـــــــــــائرِ

فَدَعَوتُ وحْشَاً فاسْتجابَ فلم نَجِـدْ   للأمْــرِ عِزّاً مِثْـــلَ قُــرْبِ النَّاصِـــــــــــرِ

وَسَمَتْ إلىَّ فَبَادَرَتْها ضَرَبَـــــــــةٌ   تركــتْ معالِمَــها كَرَسْــم داثِـــــــــــــرِ

فشاعرنا في هذه الأبيات يصف الأفعى ، واصفاً صوتها وحفيفها بـين الثمـام كأنه خفيف ليث خادر ، ويذكر نفخها ونفثها وحفيفها ، ويرى أنها لو نفخـت جـبلاً نفخه لهوى واندفع وانشق ، كما يهوي الطائر ، هذه الأفعى سـمت إلـيَّ فبادرتهـا بضربة ، قضت عليها وأنهت حياتها ، حيث تركتها جثة هامدة كرسم داثر بـالى . وقد استعان شاعرنا في رسم هذه الصورة بالتشبيه في " كأن حفيفها حفيف ليث خادر " ، " فبادرتها ضربة تركت معالمها كرسم داثر " ، كما استعان بالكناية فـي البيـت الثاني لبيان قوة نفخها ، لدرجة أنها لو نفخت جبلاً نفخة لهوى كما يهوى الطائر .

وصورة أخرى يصف فيها الحية قائلاً :([3])

جســــــــــمٌ كعــــــــودِ أراكِ   مـــــا يُــرتَضَـــى لسَــواكِ

---

[1] – ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار التراث العربـي للطباعـة 1977 م ص 379

[2] – الديوان : ص 142

[3] – الديوان : ص 170

مَــــا فيـــــهِ نَفْــــعٌ لبـــــاغٍ   إلاَّ انتـــــحــال ســــــــواكِ

فشاعرنا يصف جسم الحية ، مشبهاً إياها بعود الآراك ، ويرى أن هذا الوصف مقصور عليها فقط ، يرى أن هذا الجسم بالرغم من جماله وطوله ، إلا أنه ليس فيه نفع لباغٍ . وهذه صورة البداوة في وصف على بن الجهم 0

أما عن الأوصاف الحضارية في شعر ابن الجهم، فلعلــه مــن المفيــد قبــل الخوض في دراسة معالم الحضارة في وصف ابن الجهــم أن نشــير إلــى معنــى الحضارة لغة واصطلاحاً .

فنجد في لسان العرب لابن منظور مادة " حضر " " الحضر خــلاف البــدو ، والحاضر خلاف البادي ، وفى الحديث لا يبع حاضر لباد ، والحاضر المقــيم فــي المدن والقرى ، والبادي المقيم بالبادية ، والحضارة : الإقامة في الحضــر ، وقــال الشاعر القطامى :

فمن تكــن الحضــارة أعجبتــه   فــأي رجـــــال باديـة تــرانا

ورجل حضر : لا يصلح للسفر ، وهم حضور أي حاضرون ، والحضر والحضرة خلاف البادية ، وهى المدن والقرى والريف ، سميت بــذلك لأن أهلهــا حضــروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار " ([1])0

وفى المعجم الوسيط([2]) تعنى كلمة / حضر / أن فلان أقام فــي الحضــر ، (الحضارة) هي الإقامة في الحضر . وهى ضد البداوة ، وقد يعني بالحضر المــدن والقرى والريف ، ومن الناس ساكني الحضر ، والحضارة (مرحلــة ســامية مــن مراحل التطور الإنساني ، ومظاهر الرقى العلمي والفني والأدبي والاجتماعي فــي المصر)

---

1 – ابن منظور : لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة 1981 ، مادة " حضر ، مجلد 2 ، ص 907 .

2 – المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية ، د/ إبراهيم أنيس وآخرون ، دار إحياء التراث ، قطر ، مــادة " حضر .

هذا عن المفهوم ، أما من حيث المصطلح ، فالحضارة تعنى نمط من الحيـاة " قائم على التنقل الدائم للإنسان في طلب الرزق حول مراكز مؤقتة يتوقـف مـدى الاستقرار عليها على كمية الموارد المعيشية المتاحة من ناحية ، وعلى كافة الوسائل المستعملة في استغلالها لها من ناحية أخرى ، وعلـى مـدى الأمـن الاجتمـاعي والطبيعي الذي يمكن أن يتوافر من جهة ثالثة " ([1]). والحضـارة فـي الانجليزيـة ***civilization*** وفى الفرنسية ***civilization*** واللفظ في كلتا اللغتـين مشـتق مـن الأصل اللاتيني ***civis*** ويعنى مدني أو ***civitas*** ويعنـى مكـان تجمـع النـاس ، وحضورهم لإقامة مصالحهم وحياتهم المشتركة وحفظها ([2]).

ويوضح ابن خلدون في مقدمته ، كيف تم تحضر العرب " فقد اتسعت أموالهم ، وحصل لهم ما فوق الحاجة ، فدعاهم ذلك على السكون والدعة ، واسـتكثروا مـن الأقوات والملابس والتأنق فيها ، وتوسعة البيوت ، واختطـاط المـدن والأمصـار للتحضر ، وتجئ عوائد الترف في التأنق في علاج القوات واسـتجادة المطـابخ ، وانتقاء الملابس الفاخرة بأنواعها من الحرير والديباج ومغالاة البيـوت والصـرح ، وهؤلاء هم الحضر ، ومعناه الحاضرون ، وأهل الأمصار والبلدان "([3])0

وقد ورث العرب المدن في الشام ، ونزلوا بها ، ورأوا القصور والدور ،وكانت حضارة الشام متأثرة بما قبلها من الحضارات اليونانية والرومانية ، وكان ذلك عاملاً من عوامل تحضر العرب " وهذه الحضارة لا يمكن أن تكون بيزنطية فقط ، ولكنها خليط من حضارة مختلفة للأمم التي دخلت في نطاق الفتوحات العربية " ([4]).

---

[1] – د. صلاح الفوال : دراسة في علم الاجتماع البدوي ، الطبعة الأولى ، مكتبة القاهرة الحديثة 1967 م ، ص 299 .

[2] – د. معن زيادة : معالم على تحديث الفكر العربي ، المجلس الوطني للثقافة ، سلسلة عـالم المعرفـة ، العدد 115 ، يوليو 1987 ، جـ1 / ص 48 .

[3] – ابن خلدون : المقدمة ، تحقيق د/على وافى عبد الواحد ، طبعة دار الشعب ، القاهرة ، ص 110 .

[4] – د. محمد مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، دار المعارف ، الطبعـة الثالثة 1977 م ، ص 56 .

هذا فيما يتعلق بالحضارة من الناحية اللغوية والاصطلاحية ، وننتقل الآن لدراسة معالم الحضارة العباسية في شعر على بن الجهم ، ولقد كان من المتوقع أن يقف شاعرنا عند هذه المتغيرات الحضارية في عصره وقفة متأنية ــ كمعاصريه من الشعراء ،واصفاً لها ، مثل وصف القصور ، والورود والأزهار ، والبرك ، والسفن والأعياد .... وغيرها .

(1)- **وصف القصور** :

لما انتقلت الخلافة إلى بني العباس ، اهتموا ببناء مجتمع يواكب المجتمعات المتحضرة فنشطت حركة العمارة نشاطاً كبيراً ، فابتنى الخلفاء قصوراً ودوراً في المدن ، ومما لا شك فيه أن هذه القصور كانت مزودة بوسائل الرفاهية الموجودة بها كالبرك والنافورات ، والجدير بالذكر أن شاعرنا عاش داخل هذه القصور ، فكان من المنطقي أن يصفها .

ولقد حرص الخلفاء والأمراء على تشييد القصور والتفنن في تزيينها " حتى ليشبه بعضها مدناً صغرى تمتلئ بالأبنية والأفنية والأساطين والقباب والبساتين والجداول والبرك والنافورات ،مع التأنق في أبوابها ونوافذها وشرفاتها وزخرفة حيطانها بالنقوش والصور وتعليق الستائر الحريرية عليها ، ومع ما يموج فيها من البسط والسجاجيد والطنافس والمناضد والتحف المرصعة بالجواهر " ([1]).

وقد تأثرت القصور بالفن الفارسي ، فجعلوها بهجة للعين والنفس ، وقد أسرف الخلفاء في بناء هذه القصور " فقد كان يصل بين الدار والقصر ،بين الشارع أو الدرب دهليز مسقوف يفضى إلى فناء واسع يسلم إلى القاعة الكبرى أو الأبواب ...... إلى بعض البرك والنافورات " ([2])0ومن مظاهر الإسراف في تزيين القصور أن مصاريع البواب كانت تصنع من الخشب المحلى بالنقوش ، وتتألق النوافذ بالزجاج الملون ...... إلى المرصعة بالجواهر " ([3])0

---

[1] – شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، ص 67

[2] – شوقي ضيف : العصر العباسي الأول ، ص 44

[3] – شوقي ضيف : العصر العباسي الأول ، ص 45

هذا بالإضافة إلى ما يحويه القصر من دور وبساتين ومسطحات مظللة بالأشجار،ومن قباب وأروقة " وكانت تزيد في جماله البرك والأنهار الجارية،ويحكى عن الخليفة القادر أنه كان يجلس في البيت المعروف ببيت الرصاص،وبين يديه نهر يجرى فيه الماء إلى دجلة "([1]).

ولم يتوقف الأمر عند قصور الخلفاء ، فقد كانت دور الكبراء تتألف أيضاً من قصور كثيرة "ويحكى عن الخليفة أبى الحسن بن الفرات أنه انفق على الدار التي كان ينزلها في وزارته الثانية ثلاثمائة ألف دينار،وأشتهى في وزارته هذه أن يجمع حرمه وبنات إخوته وأصاغر ولده في الدر المعروفة بدار البستان من الدار الكبرى،فأمر بإصلاحها وتنظيفها وإنفاق ما يحتاج غليه في إعدادها،فبلغت النفقة خمسين ألف دينار "([2]).

ولم يقف الشعر بعيداً بمعزل عن هذا الإبداع في بناء القصور وتزيينها ، فقد كان الشعر مرآة صادقة ، استطاعت أن تعكس أبعاد هذه الحضارة المادية ، فأبدع الشعراء في تصوير هذه القصور ، كما أبدع أصحابها في تشييدها .

ولابن الجهم قصيدة في مدح الخليفة المتوكل ، شغل وصف " القصر الهاروني " غالبية أبياتها ، فيقول :([3])

مازِلْتُ أسمعُ أنَّ المُلوكَ ... تَبنى علَى قَدْرِ أخْطارِها

وأعلمُ أنَّ عُقُولَ الرِجَالِ ... يُقضى عَلَيْها بآثارِها

فللرُّومِ مَا شَادَهُ الأولونَ ... وللفرسِ مَأثُورُ أحْرارِها

فلمَّا رأيْنَا بِنَاءَ الإمامِ ... رأيْنَا الخِلاَفَةَ في دارها

---

[1] – آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ، الجزء الثاني ص 155 .

[2] – آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، الجزء الثاني ، ص 155 .

[3] – الديوان : ص 146 ، 147 .

وكُنَّـــا نَعُـــدُّ لهـــا نخــــــوةً فطمأنــتَ نخـــــوةَ جَبَّــــارِهــا

وأنْشَـــأَتَ تَحــــتَجُّ للمســـلمينَ علـــــــــى مُلْحِـدِيــــــــــها وكُفَّــــارهـــــا

بــــدائعَ لـــمْ تَرَهـــا فـــــارسٌ ولا الـــرومُ فِـــي طُـــولِ أعْمارِها

فشاعرنا في هذه الأبيات يشيد ببناء الخليفة ، فهذا البناء لمَّا رآه مقاماً ، كأنــه رأى الخلافة في دارها ، فالخليفة أنشأ هذا القصر ، ليحتج على الملحدين والكفــار ، وهذا القصر بلغ غاية الروعة، فلم تره فارس ولا الروم في طول أعمارها ، ويبــدأ شاعرنا في وصف القصر، بما فيه من مظاهر الجمال المتعددة ، فيقول :([1])

صُحُونٌ تُســافِرُ فيهــا العُيُــونُ وتحســرُ عــنْ بُعْـدِ أقْطـارِهـا

وقُبَّةُ مُلْــكٍ كــأنَّ النُّجــــــو مَ تُفْضـــــى عليـها بأسـرارِها

تَخِــرُّ الوفــودُ لهــا سُجَّـــــداً إذا مـــا تَجَـــلَّتْ لأبصــــارِهـــا

إذا لمَعَـــت تســـتبينُ العـــــيو نُ فيـــــها منـــابــتُ أشفــارِهـــا

وإنْ أُوْقِـــدَتْ نارُهـــا بـــالعرا قِ أضـــاءَ الحجـــازَ سنَا نارِها

لهـــا شُـــرُفَاتٌ كـــأنَّ الربيـــعَ كَسَـــاهــا الرِّيـــاضَ بـــأنوارِها

نَظَمْنَ الفُســيفِسَ نَظْـمَ الحُلِــيٌّ لِـــعُـــونِ النِّســـاءِ وأبكـــارِها

فَهُـــنَّ كمصــــطبحاتٍ بـــرزنَ بِفِصْــــحِ النَّصـــارى وإفطارِها

فمـــنهنَّ عاقصـــةٌ شعــــرهَا ومُصَلِمَـــةٌ عقْـــد زُنَّارِهـــا

وسطحٍ عَلــى شَـاهِقٍ مُشْــرِفٍ عَلَيــهِ النَّخـــيلُ بأثمــارِهـــا

إِذا الرِّيحُ هبَّــتْ لهـــا أســمعتْ غِنـــاءَ الـــقِيـــانِ بأوتارِهــــا

وفوَّارةٍ ثَأْرُهـــا فـــي السَّمـــاءِ فَليستْ تُقَصِّـرُ عــنْ ثارِهــــا

تردُّ علـــى المُــزنِ مَـــا أنزلــتْ على الأرضِ مـــنْ صَوبِ مِدارِها

---

[1] – الديوان : ص 147 ، 148

فشاعرنا رسم صورة بديعة غاية في البراعة للقصر الهاروني ، حيث صور أفنية القصر بأنها واسعة ، كما صور قبته وصعودها إلى السماء ، لدرجة أن النجوم تفضي إليها بأسرارها ، كما صور شرفات القصر وما زينت به من الفسيفساء الملونة الجميلة ، حيث شبهها بجمال الحلي على جيد النساء ، وتنوعت أشكال تلك الشرفات ، حتى لقد أشبهت الفتيات حاملات الشموع في عيد الفصح ، وذكرى قيامة المسيح ، فمنهن من تليد شعرها وتشده وتجمعه ، ومنهن من تنطق بأحزمة الزنار مختالة ، ثم يصور الفوارة التي ترسل سهامها إلى السماء ، كأنما لها ثأر عندها ، وكأنما ترد على السحاب قطره .

ولا شك أن هذه اللوحة تزخر بالعديد من المعاني والصور ، فمن صوره نجد " صورة العيون التي تسافر " ، " صورة الريح وصوتها الذي يشبه صوت غناء القيان " ، " صورة الفوارة المرتفعة التي ثأرها في السماء " ، " صورة الفوارة التي ترد على المزن المطر " ،وقد تعاونت هذه الصور في رسم ملامح ومعالم الصورة الكلية لهذا القصر .

ونخلص من خلال هذه الصورة لوصف القصر ، وأن شاعرنا ركز عدسته الفنية على القصر وملحقاته من شرفات ونافورات ، ووصف ما يتميز به القصر من وسائل رفاهية وترف وبذخ ، كان يتمتع ويحيا في ظلها الخلفاء العباسيين ، وثمة ملحوظة أخرى على وصف القصر ، أن شاعرنا لم يصور تخطيط هذا القصر وأساليب بناءه ،ولعل السبب يرجع إلى رغبة الشاعر في تخليص فنه من التعقيد ،الذي تتسم به أساليب بناء هذه القصور والآن وقد اندثرت هذه القصور التي تحدث عنها ابن الجهم ، ولكن يبقى شعر على بن الجهم ينطق بعظمة العمارة العباسية ، ويصور مدى التقدم في شتى فنون الحياة ، التي يعد المسكن من أبرزها ، وخاصة مساكن الخلفاء والوزراء ، ولا شك أن هذا يصور الثراء الذي كان ينعم به العصر العباسي ، نظراً للفتوحات ومصادر الأموال ،التي تعد أهم أركان الاستقرار السياسي والحضاري في الأمة العربية في ذلك الوقت .

(2)- **وصف الأزهار والورود** :-

نشأ الأدب العربي في الصحراء في بيئة جافة فقيرة بالمياه ، ولــذلك نجــد أن وصف الورود والبساتين والرياض كان نادراً في العصر الجــاهلي ، ولمــا جــاء الإسلام انتشرت الفتوحات الإسلامية ، وانتقل العرب إلى ديــار جديــدة ذات أرض خصبة ، وغنية بموارد المياه ، حافلة بالأزهار والورود ، فانعكس ذلك كلــه علــى الشعر العربي . وقد انتشرت الرياض والبساتين فــي العصــر العباســي ، فهنــاك الرياض الملحقة بالقصور والمنازل ، وهناك الرياض العامة " وكان يزيد من جمال الحديقة الإسلامية تبليط مماشيها ووجود البرك والقنوات الجارية والفساقى فيها .... "([1])

وقد تأثر الشعراء العباسيون بالفرس في اهتمــامهم بالأزهــار ، ولا شــك أن الاهتمام بالأزهار والولع بها في العصر العباسي ، ولم يكن خاصاً بالشعراء وحدهم ، بل كان ولعاً شعبياً منتشراً بين كل الطبقات ، لأن الاهتمام بالأزهار والولع بها يعد أثراً من آثار الرقى والحضارة " فالإنسان المتحضر مولع بالأزهار ، يستمتع بها في مظان وجودها في البراري ، أو في الحقول ، أو في البساتين ، يستنبتها في أحواض ، وفى حدائق الدور أو القصور ، ويحلى بها الغرف والأبهاء ، منسقة في أصــص ويخلق نماذج مصنوعة تحاكيها أشكالاً وألواناً ، تفاوتها حياة وأرجا " ([2]).

ويعد علي بن الجهم شأنه شأن غيره من الشعراء ، الــذين تنــاولوا الأزهــار والورود في أشعارهم، فهو يساير العصر والبيئة ، التي تبدلت من بيئة صــحراوية ليس للورد والأزهار مكاناً فيها إلى بيئة حضرية تموج بأصناف الأزهار والأنوار ، ويحتل الورد مكاناً بارزاً في أوصاف ابن الجهم ، فنراه يقول فيه : ([3])

لَمْ يضحكِ الوردُ إلاَّ حينَ أعجبــهُ ... حُسنُ النَّباتِ وصَوتُ الطَّائرِ الغَرِدِ

بَدا فأبدتْ لنَا الدُّنيا محاسنِـــــها ... وراحتِ الراحُ فــي أثوابِها الجُدُدِ

---

[1] –د/أحمد عبد الرازق احمد :تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطي ،دار الفكر العربي ،1990م،ص106

[2] – د. عبد الرحمن عطية : الصنوبري شاعر الطبيعة ، الدار العربية للكتاب ، 1981 م ، ص 88

[3] – الديوان : ص 104 ، 105

مَا عاينتْ قُضُبُ الرَّيحانِ طلعَتَــهُ | إلا تبيَّــنَ فيها ذِلَّةُ الحَسَـــــــدِ
بينَ النَّد يمينِ والخِلَّينِ مضــجعُهُ | وســيرُهُ منْ يدٍ مَوصُولةٍ بيــــدِ
قَامتْ بِحُجتهِ ريحٌ مُعطَّـــــــرةٌ | تَجلُو القُلُوبَ منَ الأوصابِ والكَمدِ
فَبادرتُهُ يَدُ المشتاقِ تسنُـــــــدُهُ | إلـــى التَّرائبِ والأحْشَاءِ والكَبِــدِ
كَأنَّ فيهِ شفاءٌ منْ صبابتِــــــهِ | أو مانعاً جَفْنَ عينيهِ منَ السَّهَــدِ
لاَ عَذَّبَ اللهُ مــنْ يعــذِّبُـــــــهُ | بمسمعٍ باردٍ أو صاحبٍ نَكِــــــدِ

فشاعرنا في هذه الأبيات يرسم لوحة فنية غاية في الجمال ، فيرى أن الورد لم يضحك إلا حينما أعجبه حسن النبات وصوت الطائر الغرد ، وعندما ظهر الــورد وبدا مزهراً مشرقاً ، أظهرت الدنيا محاسنها ، والشاعر يواصل حديثه عن ريــاحين الربيع وطيوره الغردة ونشوة النفوس به لا تقل عن نشوة الراح ، والشاعر في هذه اللوحة الفنية يصور صبابة الناس بالورد ، حتى أنهم ليضمنه إلى الصدور والأحشاء والكبد ، يريدون أن يطفئوا نيران أشواقهم ، ويشفوا به لوعات صبابتهم وســهادهم الطويل ، وإنه ليتراءى دائما يتهاداه الأحبة والعشاق ،وقد اتخذ مضجعه بينهم ،وهم يتبادلون كئوس الحب الصافية ، وأريجه ينشر شذاه في كل ما حولهم بلسماً يشــفى القلوب الكليمة . وهذه اللوحة الفنية مليئة بالصور الجزئية التي تتضافر مع بعضــها البعض ؛لترسم صورة كلية للورد،مثل " صورة الورد الذي يضــحك " ، " صــورة الدنيا التي تبدى محاسنها " ، " صورة الورد الذي يجلى ويشفى القلوب من الأمراض " ، " صورة الورد الذي يشفى من الأمراض " ، " صورة الورد الــذي يعــذب " ، " صورة ملازمة الورد للناس في مضاجعهم " .

وثمة صورة أخرى يصف فيها شاعرنا الورد ، قائلاً : ([1])

الوردُ يضحكُ والأوتــارُ تَصــطخِبُ | والنَّايُ يَنــدُبُ أشْجَاناً ويَنتحِــــبُ
والرَّاحُ تُعرضُ في نورِ الرَّبيعِ كمــا | تُجْلى العَرُوسُ عليها الدُّرُّ والذَّهَبُ

[1] – الديوان : ص 67 .

فالشاعر في هذه الأبيات يرسم لنا عدة صور ، يصور من خلالها وصف مجلس أنس ، فيصور نشوته بالراح والورد والغناء ، فاعتمد على التصوير الاستعارى في " الورد يضحك " ، " الأوتار تصطخب " ، " الناي يندب أشجاناً وينتحب " ، كما عمد إلى التشبيه في البيت الثاني ، حيث عقد علاقة تشبيهية بين الراح التي تعرض في نور الربيع ، وبين العروس التي تجلى وتتزين بالدر والذهب . وشاعرنا في هذه الصورة الفنية قد عمد إلى الصورة البصرية الحسية في "الراح تعرض في نور الربيع ، العروس ، والذهب "والصورة السمعية في " الناي يندب ـــ ينتحب ـــ الورد يضحك "0

وصورة أخرى يصف فيها الورد قائلاً : ([1])

زائــــرٌ يُهْــــدِي إلينـــــا نفســـهُ فـــي كُـــلِّ عـــامِ

حَسَـــنُ الوجـــهِ ذَكِـــيُّ الـــريحِ إلـــفٌ للـمُــــــدامِ

عُمْـــرُهُ خمســـونَ يومـــاً ثُـــمَّ يَمْـضِـــى بِســـلامِ

فشاعرنا في هذه الأبيات يصف الورد بالزائر الذي يهدى نفسه إلينا في كل عام ، وهو يشير بلغة كنائية غير صريحة إلى الربيع الذي يأتي كل عام ، ويصف هذا الزائر حسن الوجه ، زكى الرائحة ، وهو إلف وملازم للخمر ، هذا الزائر عمره خمسون يوماً ، ثم بعد ذلك يمضى بسلام ، وقد استعان شاعرنا في رسم لوحته بالصور البصرية المتمثلة في " حسن الوجه ـــ زائر يهدى نفسه " ، والصورة الشمية المتمثلة في " زكى الريح " .

وثمة صورة أخرى يصف فيها شجيرات الورد ، قائلاً : ([2])

أما تَرى شَجَرات الوردِ مُظْهِـرَةً لنا بَدائـعَ قَـدْ رُكِّبنَ في قُضُبِ

كأنَّهُنَّ يَواقيتٌ يُطِيـفُ بِهــا زبرجدٌ وَسْطَـها شَذْرٌ مِنَ الذَّهبِ

---

[1] – الديوان : ص 213 .

[2] – الديوان : ص 73 .

ما أجمل هذه اللوحة المليئة بالصور في وصف الــورد وشــجيراته ، ويكــاد شاعرنا يركب الصور تركيباً ، في بناء تصويري محكم ، يعتمــد علــى مفــردات الجمال والحضارة والرفاهية والثراء والذهب ، فشاعرنا يصف جمال الورد بأنه مثل يواقيت يطيف بها زبرجد في تركيب استعارى بديع ، وشاعرنا قــد اعتمــد علــى الصورة البصرية في " شجيرات الورد ـــ يواقيت ـــ زبرجد ـــ الذهب " وقد تعاونت الصورة اللونية مع الصورة البصرية ، ولاشك أن مثل هذه الصور قد أظهرت مدى الحضارة العباسية ، وانعكاسات ذلك على شاعرنا وعلى صوره .

(3)- **وصف البرك** :-

يعد وصف البركة واحداً من أجمل لوحات المائيات في العصر العباسي ، وأحد معطيات الحضارة العباسية ، فقد كان الخلفاء يتفننون فى تزيين قصورهم ،فيلحقون بها البرك "ويقيمون الحدائق الخاصة بهم ،هذا بالإضافة إلى الحدائق العامــة ،فقــد كانت هذه الحدائق نموذجاً لما عند الفرس ،فهى تقام علي مساحة من الأرض ،يحيط بها الأسوار من الخارج ،أما من الداخل فهى عبارة عن ممرات ومتنزهات مستقيمة بآخرها الجواسق أو البيت الصيفي وبها البرك المختلفة الشكل " ([1]) 0ولعلــى بــن الجهم قصيدة في وصف البركة المحتفرة في القصر الهاروني ، فيقول :([2])

أنْشَــأتَها بِرْكَــةً مُباركــــــةً   فَبَارَكَ اللَّــهُ فِــي عَــواقِــبِــهَا

حُفَّتْ بما تَشتهى النُّفُــوسُ لَهــا   وحَــــارَتِ النــــاسُ فـــي عَجَائِبِهَا

لم يَخْلُــق اللهُ مِثْلَهَــا وطَنَــــاً   فِي مَشْــرِقِ الأرضِ أو مَغارِبِهَا

كأنَّهَـــا والرِّيـــاضُ مُحْدِقَـــــةٌ   بِــها عَرُوسٌ تُجْلَــى لخَاطِبِــهَا

مِــنْ أيِّ أقطارِهــا أتيــتَ رأيــــتَ الحُسَــــنَ حَــــيْرانَ فِـــي

[1] – د/ جمال محمود عيسى : صور الحضارة العباسية فى شعر القرن الثالث الهجري ،المركز الدولي للنشر والتوزيع ،1998-1999 ، ص47

[2] – الديوان : ص 80 .

جَوانِبِهَا

للمَـــوْجِ فِيهـــا تَلاطُـــمٌ عَجَـــــبٌ   والجَــزْرُ والمَــدٌّ فِــي مَشَارِبِهَا

أهْدَتْ إليْهَا الدُّنيا مَحَاسِنَــــــها   وأكْمَـــــــــلَ اللهُ حُسْـــــــــنَ صَــاحِبِــهَا

فيصف البركة المحتفرة في القصر الهاروني ، معدداً نواحي جمالها ، فقد حفت بما تشتهى النفوس أن تراه فيها ، ولشدة جمالها فقد حار الناس في أمرها أشد العجب ، فهي لم يخلق الله مثلها ، وإذا نظرت إليها ، سوف تجد الحسن في كل جانب مـن جوانبها ، ثم يتطرق شاعرنا إلى وصف ظاهرة علمية ، إلا وهـى ظـاهرة المـد والجزر في البركة ، ثم يصف حركة تلاطم الموج فيها ، فقد أهدت الدنيا محاسـنها لهذه البركة ،ولم يقتصر الأمر على ذلك ، فقد أكمل الله حسن صاحب هذه البركة 0

أما عن مفردات هذه اللوحة الفنية ، فقد استقاها شاعرنا من الطبيعة المحيطـة به مثل " البركة ــ الرياض ــ أقطارها ــ الموج ــ المد والجزر " ومن الصور في هذه اللوحة ، الصورة الكنائية في " خفت بما تشتهى النفوس ــ لم يخلق الله مثلهـا وطناً ــ حارت الناس في عجائبها " 0ومن الصور الاستعارية " أهدت إليها الـدنيا محاسنها ــ رأيت الحسن حيران في جوانبها " 0 ومن الصورة التشـبيهية " كأنهـا والرياض محدقة بها عروس تجلى لخاطبها " وهكذا كانت البرك معلماً مـن معـالم الحضارة العباسية .

(4)- **وصف السفن** :

وُجد في بغداد أحياء للخلفاء والأمراء وعلية القوم ،تقوم بها قصورهم ، فتطـل على نهر دجلة ،حتى ترسو فيها سفنهم ،ويتخذون لها صور الحيوان والطير "وقـد تنوعت السفن في بغداد وعرف فيها الشوانى ومفردها شونة وشينيه وشيني ،وهـى سفينة فخمة لها قلوع بيضاء ، ويبلغ عدد مجاديفها مائة وأربعة وأربعين ،وفيها مـا يعرف " بالحربيات "ومفردها حربية ، وهى نوع من الشوانى ، لكنها أصغر حجمـاً أخف حركة وأسرع لحاقاً بالعدو ما يعرف " بالحراقات " ومفردها " حراقة "ولها من

أسمها نصيب،فهي مراكب حربية خصصت لإحراق سفن العدو ،تقذفه باللهب والنفط فتحرقه وعدد مجاديفها يقارب المائة مجداف "([1]) .

ومما هو جدير بالذكر أن البغداديين " قد اهتموا بسفن المتعة والتنزه ، فاعتنى الخلفاء ببناء مثل هذه السفن التي تشبه القصور المتحركة على وجه الماء ، فبني المتوكل واحداً من هذه القصور المتحركة العائمة ، يسمى " بالزو " وكان ينساح على صفحة دجلة جنباً القاطول جنباً أخر ، وقد استعمله الخلفاء في أيام الفراغ والشراب والقصف والصيد ، إنه اقرب ما يكون شبهاً " بالذهبيات " التي ترسو على ضفاف النيل في القاهرة في أيامنا هذه ، والتي تنساح على صفحته متى أراد أصحابها السفر بها أو التحرك ، مع فارق الحجم والضخامة والفخامة " ([2]) وتعد السفن صورة من صور الترفيه في بغداد ، يستمتع من خلالها الخلفاء والأمراء والسادة ومن معهم من الندماء والشعراء ، فقد " تطورت وسائل المتعة تطوراً يناسب العيش وتحضره ، وهو تطور أفصح عن الجانب اللاهي المترف من جوانب الحضارة العباسية "([3]).

وبلا شك يعد وصفه المركب أحد المعطيات الحضارية في العصر العباسي ، ففي الجاهلية كان العرب يعيشون حياة بدوية صحراوية ، يندر فيها الماء والأنهار ، أما في العصر العباسي ، فقد تغيرت خريطة الحياة واختفت صور الجفاف ، وكان لزاماً على الشعراء أن يعبروا عن هذه المتغيرات الحضارية التي أصابت حياتهم ، ويعد وصف المركب من أجمل لوحات المائيات في العصر العباسي ، ويقول ابن الجهم :([4])

---

[1] – د/ على إبراهيم أبو زيد : دجلة والسفينة في الشعر العباسي ، ص 60 ، **وانظر** : د0مصطفي الشكعة : الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، ص489

[2] – د/ مصطفى الشكعة : الشعر والشعراء في العصر العباسي ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، الطبعة الثانية 1975 م ، ص 72 .

[3] – د/ على أبو زيد : دجلة والسفينة في الشعر العباسي ، ص 62 .

[4] – الديوان : ص 75 ، 76 .

عَجِبْـــــتُ كُـــــلَّ العَجَــــــبِ مِــنْ سَــيرِ هَــذا المَــرْكِــبِ

ومَالـــــهُ مِـــنْ عَـــيْنٌ ولا رُوحٌ جَــرَتْ فِــي عَصَـــبِ

لِجامُـــــهُ مِـــنْ خَلْفِـــــهِ مُرَكَّــبٌ فـــي الذَّنَـــــبِ

مَـــزَيَّنٌ بـــالودعِ فِـــي الصَّـــ در وَرَمْـــــعِ العَـــــذَبِ

ومَالـــهُ مِـــنْ ثَفَــــــــرٍ ومَالــهُ مِــنْ لَبَــــــبِ

سِــــيَاطُهُ فِــــي سَيْـــــرِهِ دَفْـــــعُ مَــــــرادِي الخَشَـــبِ

فشاعرنا في هذه الأبيات يصف المركب عن طريق الموازنة بينه وبين وسائل النقل البدائية المتمثلة في الجياد ، وهو بهذه الموازنة يبرز لنا مدى الحضارة التي غيرت وجه الحياة في عصره ، ونراه متعجباً من سير هذا المركب ، دونما أن تكون له عين يرى بها ، أو روح تجرى في عصبه ، ثم يصفه بأنه مزين بالخرز الأبيض الذي يخرج من البحر ، ويرى أن هذا المركب ليس له من سير في مؤخر السرح ، ولا سيور يشد بها كما هو الحال في الجياد ، بل يدفع بخشبة في يدي الملاح ، فلا يدفع بالسياط كما في الدواب . ويواصل وصفه للمركب بقوله :([1])

أَعْتَـــقَ فَـــوقَ المـــاءِ فِـــي هَمْـلَجَــــــــــةٍ أوْ خَبَـــــبِ

لِلْمَـــــاءِ فِـــــي حَيْزُومِـــــهِ مِـنْ صَـوتِ مَـــوجٍ صَـخِبِ

حَشْـــرجَةٌ كَالرَّعْـــدِ فِـــي عَـــارِضِ غَـيـثٍ لَـجِـــبِ

يَنْســـابُ كَالحَيَّـــةِ فِـــي عَطْـفِ ذُنَـابــى العـقــربِ

لَــــهُ شِـــراعٌ مُشْـــرِفٌ كَالبَنْـــــدِ يَـــــومَ الشَّـغَـــبِ

مُنتصــــبٌ تَجْـــذُ بُــــهُ الأ رْسَـــانُ جَـذْبَ الطُّـنُـبِ

[1] – الديوان : ص 76 – 77 .

لِلـــــــرِّيحِ فيـــــهِ حَنَّـــــــــةٌ مِـــنْ جَـــرْيِـــهِ المُنْجَـــذِبِ
فُرْسَـــــانُهُ الأنبــــاطُ مِـــــن مَيْســـــانَ أهْـــــلَ الرَّيَـــبِ
وكُلُّهُـــــــــمْ مَنْطِقُـــــــــــهُ عِنـــــدَ الرِّضـــا بالغَضَـــبِ
الخيـــــــرُ والشَّرْسَـــــــــوا ءُ عنـــدهُ فـــــي سَبَـــــــبِ
فَـــارْمِ بِعَيْنَيْـــكَ إلـــى الشَّـــ طَّيـــــــنِ عِنـــــــــــدَ الكُـــثُــــــبِ
تَـــــرى رِجـــــالاً زُكَّعـــــاً فـــي جَـــريـــهِـــمْ كَـــالحُـــدُبِ
يَقْفُـــــونَ آثـــــاراً عَلـــــى جَـــذْبَـــةِ خَـــيْـــطِ القُـــنَّـــبِ
كَـــــأنَّهُمْ فِـــــي وَهَـــــق الأ تـــراكِ عِنـــدَ الـــهَـــــرَبِ
إذا اسْـــــــــتَراحُوا فَهُـــــــمُ فِـــي راحَـــةٍ مِـــنْ تَعَـــبِ
عاليـــــــــةٌ أصْـــــــواتُهُمْ عِنـــــــــدَ الغِنَـــــــاءِ المُطْـــرِبِ
بمَـــــــاء بانـــــــا كُلُّهُـــــمْ لا بِلِســــــــــــــــانِ العَـــــــرَبِ

بعد تقديم شاعرنا لصورة المركب ، تصويره لسـير المركـب فـي المـاء ، وصراعه مع الماء ، وتفوقه عليه وانسيابه على سطحه ، وقـد اسـتعان الشـاعر بمجموعة من الصور الفنية ، سواء السمعية والبصرية ، وعدد من التشبيهات ، فمن الصور البصرية التي ساهمت في نسج خطوط صورته " هملجة أو جنب ـــ ينساب كالحية ـــ عارض غيث لجب " ،ومن الصور السمعية " حشرجة كالرعـد ـــ مـن صوت موج "، ومن الصور التشبيهية " حشرجة كالرعد " فالشاعر يصـور سـير المركب وصراعه مع الماء ، وهذا الصراع من شأنه أن يحدث صوتاً ، هذا الصوت في تردده وقوته كصوت الرعد في السحاب المعترض في الأفق ، صورة تشـبيهية أخرى " ينساب كالحية " حيث يصور انسياب المركب في الماء بجسم الحية ، لما فيه من الإنسابية والنعومة والمرونة . وينتقل الشاعر بعد وصف المركب إلى وصـف

ملاحيه ، من الأنباط ، فيصور عقولهم ويحكى أصواتهم ويجسد حركاتهم وهم يوقعونها على نغماتهم الخاصة ، وقد استعان شاعرنا بالطبيعة واستقى منها مفردات صورته مثل" الماء ــ الموج ــ الرعد ــ الحية ــ الريح ــ العقرب

(5)- **وصف وسائل التسلية** :

شهدت بغداد في القرن الثالث الهجري نهضة كبري في ابتداع أصناف الملاهي والألعاب علي يد الخلفاء العباسيين أنفسهم وكبار رجال الدولة ،فقد كانت هذه الطبقة الراقية تتفنن في ابتداع ما تقضى به أوقاتها فيما يسر ويبهج ، وقد كانت قصور الخلفاء تعج بمثل أنواع هذه المسليات ([1]).

وتعد خلافة المتوكل خير شاهد على ذلك ، ففي أيامه " ظهر في مجلسه اللعب المضاحك والهزل ، مما قد استفاض في الناس تركه إلا المتوكل ، فإنه السابق إلى ذلك والمحدث له . وأحدث أشياء من نوع ما ذكرنا فاتبعه فيها الأغلب من خواصه وأكثر رعيته ، فلم يكن في وزرائه والمتقدمين من كتابه وقواده من يوصف بجود ولا أفضال أو يتعالى عن مجون وطرب "([2]).

ومع التقدم الحضاري في العصر العباسي ، والتقدم في شتى مناحي الحياة ، لجأ الخلفاء العباسيون إلى قضاء وقت فراغهم في وسائل التسلية المتعددة ، من وصف رحلات الصيد ، والعاب مثل الشطرنج ..... وغيرها من وسائل التسلية .

(أ)- **الصيد والطرد** :-

وفيما يتعلق بالصيد ، فيعد من وسائل التسلية التي وُجدت في المجتمع العباسي ، والتي ذكرها على بن الجهم في شعره ، والصيد " كان معروفاً عند العرب في الجاهلية ، ولكنه كان مقصوراً على صيد غزال أو طائر بالنبل أو الفخ ، فلما تمدن

---

[1] – محمد فوزي مصطفى : صورة المجتمع العراقي في شعر القرن الثالث الهجري ، رسالة دكتوراه جامعة الأزهر 1971 م ، 131 ، 132

[2] – المسعودي (أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودي 346 ه) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الخامسة 1393 هـ / 1973 م ، الجزء الثاني ، ص 392 .

العرب بعد الإسلام ، وخالطوا الفرس والروم ن وتوسعوا في طرق الصيد والقنص ، وغالوا في اقتناء الكلاب والفهود ونحوها ، يستعينون بها علـــى صـــيد الخنـــازير والغزلان وحمر الوحش "([1]).

والصيد من الوسائل التي اتخذها العباسيون وسيلة للتسلية واللهو والترويح " فهو خروج من رتابة العيش إلى الفلاة الواسعة ، حيث الحرية البريئة النقية ، فيـــتلخص الإنسان ولو لساعات من مسكنه الضيق المحدود ومجتمعه المقيد بالعادات والتقاليد ، ليجتمع في مصادقة حلوة صافية مع الطبيعة الصادقة الحنونة التي لا تعرف الغـــش ولا الخداع،ولا تراوغ من أجل مصلحة شخصية أو هدف سياسي،عندما يفتح الصياد مغالق نفسه عليها ويبث لواعج صدره إليها،ويتبادلان الحب كأحسن عاشق معشوق " ([2])0

ولقد شغف الخلفاء بالصيد كالهادي والمتوكل ، إذ كان يولع بالفهود والصيد بها ، كما كان يولع بالشباك ، وكان المعتضد من أشد الخلفاء شغفا به " وكان المعتصـــم في أكثر أموره ومآربه وأشبه به من سائر بيته وبنيه من الخلفاء في محبته لمباشرة الحرب والصيد وما أشبهما ، ولم يكن ينفك من حرب إلا إلى صيد ولا من صيد إلا إلى حرب ، وكان يخرج لصيد الأسد ، فيخيم عليها حتى لا يبقى منها باقية "([3]).

ومن ثم فقد أكثر الشعراء من النظم في هـــذه الرياضـــة ، وأطلقـــوا عليهـــا " **الطرديات** " ولم يتركوا ضارياً من ضواري الصيد إلا وصفوه ، ولا جارحـــاً مـــن جوارحه إلا نعتوه ، نعتوا الكلاب والفهود والبزاة والشواهين والصقور والعقبـــان ، ونعتوا الصيد من حمر الوحش وأتنه ثيرانه وبقره وظبائه ونعامـــه ، وكـــذلك مـــن

---

[1] – جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ ، الجزء الخامس ، ص 695 .

[2] – د/ حسين الحاج حسن : حضارة العرب في العصر العباسي ، المؤسسة الجامعية للدراســات والنشـــر والتوزيع ، بيروت 1414هـــ / 1994 م ، ص 192 .

[3] – كشاجم (محمود بن الحسين بن السندى بن شاهل أبو الفتح كشاجم 360 هـــ) : المصايد والمطـــارد ، تحقيق أسعد أطلس ، دار المعرفة ، بغداد 1954 م ، ص 5 ، 6 .

الأرانب والثعالب والذئاب الأساد والطير والأوز ، وألموا بآلاته من النبل والسهام والنشاب والفخاخ والشباك والحبال المسماة بالوهاق التي تجعل في أطرافها انشوطة وترمى على الحيوان فتمسك بعنقه ، والجلاهق وهو بندق مدور من طين يرمى به ([1]).

وفى العصر العباسي اهتم الخلفاء بالصيد والقنص ، فأصبح الصيد والقنص من أهم وسائل التسلية عندهم ، وذلك لما يشتمل عليه من فوائد كثيرة منها " تمرين العساكر على الركض والكر،وتعويدهم على الفروسية ،وإدمانهم للرمي بالنشاب والضرب بالسيف والدبوس ، واعتياد القتل والسفك،وتقليل المبالاة بإراقة الدماء ...... ومنها أن حركة الصيد حركة رياضية ... ومنها فُضل لحم الصيد على باقي اللحوم ...... " ([2]).

وقد غالى العباسيون في تربية الجوارح من الطير والكلاب والفهود ، وأقاموا عليها أناساً ينظرون في شئونها كالحجالين ، والفهادين ، ،أصحاب الصقور ، والكلاب ، وأطلقوا لهم الأرزاق الجليلة والأموال العظيمة([3]).

وقد ترتب على هذا الاهتمام بالصيد ، اهتمام علماء المسلمين بدراسة حياة الحيوان والطير ، وألفوا فيها الكتب الكثيرة ، ومن كبار المؤلفين عن الحيوان " الجاحظ " ت 255 هـ في كتابه " الحيوان " ، والدميري في كتابه " حياة الحيوان الكبرى " ، وابن الحسين في كتابه " البيزرة " أو " البزدرة " ([4]).

وجدير بالذكر أن الصيد لم يتوقف عند الخلفاء ذوى الوجاهة فقط ، بل امتد إلى عامة الناس " مما دفع الناصر أن يجعله جزءاً من الفتوة ،واشترط فيها إحسان

---

[1] – د/ شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، ص 486 ــ 487 .

[2] – ابن الطقطقا (محمد بن على بن طباطبا) : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص 55 .

[3] – د. جورج حداد : المدخل إلى تاريخ الحضارة ، نشر مكتبة السائح ، طرابلس 1985 م ، ص403 .

[4] – د/ أحمد عبد الرازق أحمد : تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، دار الفكر العربي 1990 م ، 147 ــ 148 .

المنتسب إليها الرمي بالبندق ،وكأنه يريد أن يمرن الشباب لا على الصيد من حيث هو ،وإنما على صيد أعداء العرب والإسلام " ([1]) .

وعلى بن الجهم شأنه شأن غيره من الشعراء ، تأثر بالحضارة من حوله ، فكان في معظم حياته مشاركاً الخلفاء في أفراحهم وأتراحهم ، فكان يخرج مع الخلفاء والقواد في رحلات الصيد ، فتتحرك نفسه وينفعل بما يراه ، فينطلق يصف ذلك ، ومما قاله في وصف الصيد :([2])

وَطِئْنَا رِيَاضَ الزّعْفَرانِ وأَمْسَكَتْ	**عَلينا البُزاةُ البِيْضُ حُمْرَ الدَّرَارِجِ**
ولَمْ تَحْمِهَا الأَدْغَالُ مِنَّا وإنَّمَا	**أبَحْنَا حِمَاهَا بِالكِلابِ النَوابِحِ**
بِمُسْتَرْوِحاتٍ سَابِحاتٍ بُطُونُهَا	**عَلى الأَرْضِ أَمثالَ السِّهَامِ الزَّوالِجِ**
وَمُسْتَشْرِفاتٍ بِالهَوادِى كَأَنَّهَا	**مَا عَقَفَتْ مِنْهَا رُؤوسُ الصَّوالِجِ**
ومِنْ دَالِعَاتٍ أَلْسُناً فَكأَنَّهَا	**لِحىٍ مِنْ رِجَالٍ خَاضِعِينَ كَواسِجِ**
فَلَيْنَا بِهَا الْغِيطَانَ فَلْياً كَأَنَّهَا	**أَنَامِلُ إِحْدَى الغَانِيَاتِ الْحَوالِجِ**
فَقُل لِبُغَاةِ الصَّيدِ هَلْ مِنْ مُفَاخِرٍ	**بِصَيْدٍ وهلْ مِنْ واصفٍ أَو مُخَارِجِ**
قَرَنَّا بُزاةً بالصُّقورِ وحَوَّمَتْ	**شَواهِينُنا مِن بَعدِ صَيْدِ الزَّمَامِجِ**

ويقول صاحب الأغاني حول هذه القصيدة " لما أطلق طاهر بن عبد الله بن طاهر على بن الجهم ، أقام معه بالشاذياخ مدة ، فخرجوا يوماً إلى الصيد ، وأتفق لهم مرج كثير الطير والوحش ، كانت أيام الزعفران ، فاصطادوا صيداً كثيراً حسناً

[1]– د/ شوقي ضيف :عصر الدول والإمارات ، ص263

[2] – الديوان : ص 84

، وأقاموا يشربون على الزعفران ، فقال على بن الجهم يصف ذلك : وطئنا رياض الزعفران .... " ([1]).

وشاعرنا في هذه القصيدة يصف رحلة صيد ، وكيف أمسكت البزاة معه الطير الأحمر ، فرغم كثرة الأدغال والغابات ، إلا أنها لم تحمها منـا ، وأبحنـا حماهـا بالكلاب النوابح ، ويصف كيف تشممت بطون الأرض في سرعة ، مثـل السـهام السريعة التي تمضى على وجه الأرض ، ويصفها كأنها مـا عقفـت منهـا رؤوس الصوالج ، وكيف فلينا بها الغيطان ، وكأنها أنامل إحدى الغانيات التي تحلج القطن ، حتى تخلص الحب منه ، ثم يفخر شاعرنا بالصيد الكثير ، قائلاً هل من مفاخر فـي الصيد يصطاد مثلنا .

ولقد اعتمد شاعرنا على الصورة في رسم هذا المشهد ، فمن صوره " الأدغال التي تحمى " ، " حومت شواهيننا " ، " كأنها ما عقفت منها رؤوس الصـوالج " ، " فكأنها أنامل أحدى الغانيات الحوالج " ، " فكأنها لحى من رجال خاضعين كواسج " . وقد استعان الشاعر بالطبيعة ومفرداتها في بناء هذه الصورة مثل : (الـدرارج ــ الأدغال ــ الكلاب ــ الصقور ــ الزمامج) .

ويجب أن أشير إلى أن رحلة الصيد عند علي بن الجهم لم تكن تعتمـد علـى حيوان واحد فقط ،بل تعددت لتشمل البزاة والصقور والشواهين والكـلاب ؛ وذلـك لكبر المستهدف ،وهو المسح الشامل للمرج ،جواً وأرضاً ،ولذلك عمد إلى التشـبيه لبيان قوة أدواته ،فمنقار الصقر كأنه صولجان ،وألسنة الكلاب وهى تلهث من شـدة الجهد كاللحى المرسلة على الذقن ،ومن ثم فقد قامت حيوانات الصيد بالمهمة علـى أكمل وجه .

إذن يمكن القول إن الصيد كان يعد مظهراً من مظـاهر الحيـاة الاجتماعيـة والأخلاقية والحربية ، وكلف العرب به نابع من كلفهم بالفروسية ، ولـذا " أجمـع

---

[1] – الأصفهاني (أبو الفرج الأصفهاني) : الأغاني ، نشر الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1970 م ، الجزء العاشر ، ص 227 .

العقلاء أن ألذ ما وُجد من الصناعات وأجلها وأطيبها وأقربها إلى طبائع الإنسان هو الصيد ، وذلك لأنه يميل إليه قلب الإنسان كل من الخلق " ([1]).

(ب)- **لعبة الشطرنج** :

تعد لعبة الشطرنج من أهم وسائل التسلية في المجتمع العباسي ([2]). ومن كان يحسن لعبة الشطرنج تفتح له أبواب الخلفاء والأمراء والسادة ، مثل أبى القاسم التوزى الشطرنجي ، ومحمد بن يحيى الصولى ، ويحدثنا المسعودي : أن الشطرنج كان يلعب على رقعة آدم مربعة حمراء ، ويعرض لآلاتها وأنواعها وهيئاتها ، وكانت هناك رقعة أخرى مدورة ورقعة نجومية ، وقد استحدثت في زمانه رقعة للشطرنج تسمى الجوارحية ، سموا كل بيت من أبياتها باسم جارحة من جوارح الإنسان ([3])

ومما قاله أبن الجهم في ذلك : ([4])

أرضٌ مُرَبَّعَةٌ حَمْـراءُ مِـنْ أَدَمِ ... مَا بَيْـنَ إلْفَيْنِ مَعرُوفَيْنِ بالكـرمِ

تَذَاكَرَا الحَرْبَ فَاحتالا لَها فِطَنـاً ... مِـنْ غيرِ أنْ يأثَما فِيهَا بِسَـفْكِ دَمِ

هَذا يُغَيْرُ عَلَى هَـذا وَذَاكَ عَلـى ... هَـذا وعَيْنُ حَلِيفِ الحَزْمِ لم تَنَمِ

فَانْظُر إلى بُهَمٍ جَاشَـتْ بِمَعْرَكَـةٍ ... فِـي عَسْكَرِيْنِ بِـلا طبـلٍ ولا عَلَمِ

---

[1] – د/ حسين الحاج حسن : حضارة العصر العباسي ،ص67

[2] – **انظر :**

(أ)–الأصبهانى: محاضرة الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ، الجزء الثاني ص 725 .

(ب)–الأبشيهى (شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهى 850 هـ) : المستطرف في كل فن مستطرف ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان 1412 هـ / 1992 م ، الجزء الثاني ، ص 312 .

[3] – المسعودي :مروج الذهب ومعادن الجوهر ،الجزء الرابع ، ص326

[4] – الديوان : ص 203 .

صورة رائعة يصف فيها معركة ،ولكنها ليست معركة حربية ، إنها معركة في لعبة الشطرنج ، فيصف هذه الأرض المربعة الحمراء المصنوعة من الجلد المدبوغ ، التي تدور بين إلفين مشهورين بالكرم ، ويصف كلاً من الإلفين ،وكيف أخذ كل منهم يتذاكر جيداً ،ويأخذ بوسائل الحيطة التي تمكنه من هزيمة الخصم الآخر ، وكل ذلك من غير أن يكون هناك سفك دم ، فهذا يغير وهذا يغير في فطنة وذكاء ، ولكن عين حليف الحزم لم تنم ، فانظر إلى ذلك الشجاع الذي يستبهم على أقرانه مأتاه ، وهذا المعركة التنافسية كانت بلا طبل ولا علم ، شأن المعارك الحربية . وهكذا اشتمل في الوصف عند على بن الجهم على أشياء مختلفة ومتعددة ، وصفها فأجاد الوصف .

وفى ضوء ذلك يتضح لنا مدى اهتمام العباسيين بمظاهر الحضارة التى تركت علوماً وآداباً وفنوناً ،إضافة إلى جوانب الحضارة المتمثلة فى القصور والبرك ووصف السفن00وغيرها من مظاهر المدنية الحديثة ، وبذلك فان " العرب استطاعوا أن يبدعوا حضارة جديدة مستعينين بما استعاروا من الفرس واليونان والرومان ،وأن حضارة العرب كان لها من المناعة ما استطاعت أن تهيمن به على البرابرة الذين حاولوا هدمها ،وقد ظهر لنا أن جميع أمم الشرق الكثيرة التى ساعدت على قهر العرب ،منها الترك ،أعانت بلا استثناء على نشر نفوذ العرب ،وأن أمماً قديمة قدم العالم ،كالمصريين والهنود ،اعتنقت ما جاءها به العرب أو ورثتهم من الحضارة الدين واللغة "([1]) 0

[1] – غوستاف لوبون :حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة 2000م ، ص180